

حوارية النصوص بين جانبي البحر الأبيض المتوسط - الأدب الجزائري والأدب الفرنسي نموذجين

شامة مكلي^{*1}

¹ جامعة مولود معمري ، تيزي وزو ، الجزائر ، chama.mekli@ummtto.dz

النشر: 2025/12/26

القبول: 2025/12/08

الإرسال: 2025/07/31

الملخص:

تمتاز الظاهرة الأدبية بالانفتاح والتطور والتحول وفقا لمعطيات العصر ، وكل أدب يسعى إلى بلوغ الجمالية والعالمية وعدم التقوقع في إطار قومي ضيق. والأدب في الوقت نفسه لا يمكنه أن يخلع ثوب القومية ويتنكر لهويته الثقافية ، لذلك يسعى كل أدب للاحتفاظ بهويته ويحاول بلوغ العالمية وفق هذه الهوية ، وعليه نجد الكثير من الآداب تتشابه فيما بينها ، نتيجة تأثير بعضها في بعض ، وفي الوقت نفسه تكتسب بعض الخصوصيات تتميز بها عن غيرها. إنطلاقا من هذه المعادلة والطبيعة الموجودة في الأدب سنحاول من خلال هذا البحث دراسة طبيعة الحوار بين نصوص ومؤلفين على جانبي البحر الأبيض المتوسط ، من خلال دراسة نموذجين: الأدب الجزائري مع الأدب الفرنسي ، ثم الكشف عن نقاط تلاقي هذه النصوص ، وكيفية انعكاس عملية التأثير والتأثر -التي اعتبرتها المدرسة الفرنسية أرضية كل مقارنة أدبية- بين الأدبين السالفي الذكر ، وسنأخذ أدبين لكاتبين وهما: الروائي الفرنسي "البير كامو" وروايته السقطة أو La chute والروائي الجزائري "إبراهيم سعدي" من خلال روايته "فيلا الفصول الأربعة" و"بوح الرجل القادم من الظلام".

وسنسعى من خلال هذه المقارنة الكشف عن التقاطعات الموجودة بين هذين الأدبين ومن ثم الوصول إلى إثبات وجود حوار بين الثقافات من خلال تقارب الكتابات الإبداعية. الكلمات المفتاحية: أدب ؛ اشتراك ؛ تأثير وتأثر ؛ تقاطع ؛ ثقافة ؛ مقارنة.

* المؤلف المرسل.

Dialogue of texts between the two sides of the Mediterranean Algerian literature and French literature as two samples

Abstract *The literary phenomenon is characterized by openness, development, and transformation according to the era's data and every literature seeks to achieve aesthetics and universality and avoid being isolated within a narrow national framework. At the same time, literature cannot get rid of nationalism and deny its cultural identity. Therefore, every literature seeks to preserve its identity and tries to achieve universality in accordance with this identity. Consequently, many literatures are similar to each other because of the influence of some of them on each other, and at the same time they acquire some characteristics that distinguish them from others. Based on this equation and the nature existing in literature, we will attempt through the present research to study the nature of dialogue between texts and authors on both sides of the Mediterranean by studying two samples: Algerian literature and the French literature. Then, to reveal the points of convergence of these texts and the way the process of influencing and influence - which is considered by the French school as the basis of every literary comparison - is reflected between the two aforementioned literatures. We will take two literatures by two writers: the French novelist Albert Camus and his novel *The Downfall* (*La Chute*) and the Algerian novelist Ibrahim Saadi through his novels "*The Villa of the Four Seasons*" (*Villa el fousoul el arbaâa*) and "*The Man Coming from Darkness*" (*El radjoul el qadim mina el dhalam*). We will try through this comparison to reveal the intersections between these two literatures and thus confirm the existence of a dialogue between cultures through the convergence of creative writings.*

Key words: literature, sharing, influencing and influence, intersection, culture, comparison.

1-مقدمة

ظهر في القرن التاسع عشر بحث جديد في النقد الأدبي ، يعتمد على مقارنة الآداب فيما بينها ، ويتخذ من مبدأ التشابه والمحاكاة ركيزة ومنطلقا في البحث ، أطلق عليه اسم "الأدب المقارن" ، الذي ظهر أول ما ظهر في البيئة الأوروبية ، وبالضبط في فرنسا على يد "أبل فيلمان-Able Villeman". اتخذ هذا البحث الأدبي مفاهيم عدة تتفق في بعض الأسس والركائز ، وتختلف في أخرى ، طبقا لوجهة نظر وتصور كل باحث أو مدرسة من مدارسها. نشأ هذا النقد الأدبي في أوساط ثقافية مختلفة ، وتطور مفهومه وفق سياق هذه الثقافات ، فالاتجاه الفرنسي يتخذ من المبدأ التاريخي والقومي واللغوي ركائز في المقارنة ، أما الاتجاه الأمريكي فيرى أن هذه المبادئ هشة ، ولها أبعاد سياسية وإيديولوجية تحاول ترسيخ فكرة المركزية الفرنسية. أما الاتجاه السلافي فتبنى مبادئ أخرى كما سيتضح لنا في هذا البحث.

ولأن الدراسات المقارنة أفادت البحث النقدي والأدبي بما أتى به من أفكار ومبادئ ساهمت وتسهم في إخراج آداب القوميات المختلفة من المحلية إلى العالمية ، وبها حققت من نتائج في إثبات تأثير الآداب والثقافات فيما بينها ، ارتأينا إلى محاولة دراسة أدبين-ينتمي إلى ثقافتين مختلفتين وهما الأدب الفرنسي والأدب الجزائري المكتوب باللغة العربية ، مع العلم بوجود روابط وعلاقات تاريخية بينهما-دراسة مقارنة للكشف عن نقاط التلاقي والاختلاف بينهما. وسنحاول الإجابة عن سؤال جوهرى وهو: ماهي ملامح التأثير والتأثر بين الأدب الفرنسي والأدب الجزائري؟ وذلك من خلال دراسة بعض النماذج النصية.

2- مفاهيم الأدب المقارن.

يتخذ البحث المقارن مفاهيم عدة من بينها أنه "العلم الذي يدرس على نحو خاص آثار الآداب المختلفة ، في علاقاتها المتبادلة"¹ ، إضافة إلى ذلك فهو يهتم بدراسة أدب قومي ما ويقارنه بأدب قوميات أخرى ، فهو بذلك "العلم الذي يدرس الأدب القومي لأمة من الأمم في علاقاته التاريخية بغيره من الآداب. فهو يدرس مواطن التلاقي بين الأدب القومي لأمة وبين أدب قومي آخر لأمة أخرى تختلف عن الأولى"² فواضح من هذين التعريفين أن الاختلاف مبدأ

ثابت في المقارنة ، وهذا ما أورده "ماريوس فرانسوا غويارد -Marines François Guyard" في كتابه (الأدب المقارن) قائلاً أن الأدب المقارن "تاريخ العلاقات الدولية. من هنا أن الباحث المقارن يتوقف عند الحدود اللغوية أو الوطنية ويراقب تبادل المواضيع والأفكار والكتب والمشاعر بين أديين وأكثر"³.

وسّع الأمريكيون من مفهوم الأدب المقارن ، ليكون أكثر تفتحا وشمولية ، فتجاوزوا المبدأ التاريخي وعامل التأثير والتأثر في المقارنة وتعويضهما بمبدأ الجمالية والأدبية ، تأثرا بالتأثير النقدي الجديد والشكلانية اللذان يدرسان "ما يجعل من الأدب أدبا"⁴، فحقيقة المقارنة الأدبية لا تكمن في وجود علاقات تاريخية بين الآداب المتشابهة ، وإنما في القدرة على المقارنة بين الآداب من حيث الجمالية والإبداع⁵. كما أن المدرسة الأمريكية رفضت عنصر القومية في الدراسات المقارنة⁶ وعنصر اختلاف اللغة⁷. كما أنها لم تحصر المقارنة بين الآداب فقط بل تجاوزتها لتشمل المقارنة بين الآداب والنواحي المعرفية الأخرى كالفلسفة ، والتاريخ ، والنحت ، والرسم... الخ. فقد وسعوا من دائرة الدراسات المقارنة ، وهذا ما يتجلى من تعريف هنري ريماك للأدب المقارن (في كتابه: الأدب المقارن: المادة والمنهج الذي صدر عام 1961 بالولايات المتحدة الأمريكية) ، الذي يقول عنه بأنه "دراسة الأدب فيما وراء حدود إقليم معين ، ودراسة العلاقات بين الأدب ونواحي المعرفة الأخرى بما فيها الفنون الجميلة ، والفلسفة ، والتاريخ ، والعلوم الاجتماعية والعلوم التجريبية ، والديانات ، وغيرها"⁸. إضافة إلى غيرها من المفاهيم التي تحاول أن تعاین هذا البحث الجديد من زوايا أخرى كما تجلى ذلك عند المدرسة الروسية السلافية ، التي "درست الأدب نقدياً ، في إرجاع ظواهر التشابه بين الآداب القومية إلى العلاقة الجدلية بين الظواهر الأدبية ، والبنى الاقتصادية والاجتماعية للمجتمع"⁹ كما ربطت الدراسات المقارنة الآداب بما يعرف في الدراسات النقدية المعاصرة بالتناس ، الذي يعكس التشابه دون ضرورة وجود علاقة مباشرة بين الآداب ، وإنما باعتبار الأدب سلسلة لا متناهية من النصوص ، يأخذ بعضها من بعض ، أو مجرد توارد للأفكار قد تتفق عند بعض الأدباء.

تتفق هذه المفاهيم حول إجراء المقارنة بين أكثر من أدب ، وكذلك انتماء الآداب إلى أكثر من قومية ، وهذا يضع البحث أمام مقارنة بين آداب تنتمي إلى أكثر من قومية وثقافة وحدود جغرافية ، وبالمختصر المفيد يضعه بين أدب محلي وآخر أجنبي ، بصرف النظر عن طبيعة المقارنة وآلياتها ؛ لأنها تشكل عناصر اختلاف بين المدارس المقارنة المختلفة.

3- المؤلفين ومبدأ التأثير:

تهدف دراسة العلاقة بين الآداب المنتمة إلى قوميات مختلفة إلى استقصاء ظواهر التأثير والتأثر بينها، بالاعتماد على المبدأ التاريخي —حسب المدرسة الفرنسية— بناءً على خلفية نظرية وفلسفية وهي النزعة التاريخية في دراسة الأدب، الذي يفترض وجود علاقات تاريخية فعلية بين الآداب أو التأثير والتأثر المباشر بين الأدباء، وأصل الفكرة هو الفلسفة الوضعية التي تبنت مبدأ التجريب لتأكيد الحقائق العلمية.

انطلاقاً من هذا فإن تحليل نصوص في إطار المقارنة يستدعي التعريف بأصحاب هذه النصوص لفائدتها في التحليل، والوصول إلى نتائج مرضية، سواء من منظور المدرسة الفرنسية، التي ترى ضرورة الإحاطة بحياة المؤلفين وإثبات تأثر بعضهم ببعض سواء بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، أو بالنظر إلى أن الخطاب الأدبي الذي يتخذ بعض سمات تعود إلى المؤلف، والسياق العام الذي نشأ فيه فكرياً ودينياً وإيديولوجياً، واجتماعياً وجغرافياً، وهو مبدأ تبنته العديد من النظريات الأدبية كالنظرية التعبيرية، أو الأسلوبية التعبيرية، إضافة إلى ما تبناه الاتجاه الماركسي في الأدب المقارن، حيث يرجع التشابه بين الآداب إلى التشابه في الظروف الاجتماعية المحيطة بالآداب القومية حيث "يحاول علم الأدب المقارن إظهار الطبيعة العامة للعلاقات بين الآداب، أخذاً بعين الاعتبار وقبل كل شيء العوامل الاجتماعية والاقتصادية"¹⁰

ألبير كامو كاتب فرنسي، ولد في إحدى قرى ولاية الطارف بالشرق الجزائري عام 1913م، من أب فرنسي وأم إسبانية، ولقد تلقى تعليمه الأساسي في الجزائر وتابع دراسته فيها إلى أن التحق بقسم الفلسفة كلية الآداب جامعة الجزائر. اشتغل في البداية كصحفي، ثم انتقل من كتابة المقالات البسيطة والأخبار إلى كتابة الروايات. معتمداً في كتاباته على لغته الأم وهي الفرنسية، ومن أشهر أعماله (رواية السقطة)، و(أسطورة سيزيف)، (الطاعون)، و(الغريب). ولقد كانت مسرحياته ورواياته عرضاً لفلسفته في الوجود والحب والموت والثورة والمقاومة والحرية، وقد انضم إلى المقاومة الفرنسية أثناء الاحتلال الألماني، توفي سنة 1960.

أما الروائي إبراهيم سعدي فهو روائي وأكاديمي ومترجم جزائري، من مواليد 1950، تحصل على شهادة الدكتوراه في الفلسفة. من أعماله الروائية: "المرفوضون"، "فتاوى زمن الموت" (1999)، و"بوح الرجل القادم من الظلام"، و"بحثاً عن آمال الغبريني" (2004)، و"كتاب الأسرار" (2008)، و"الأعظم" (2010)، رواية "الآدميون"، "فيلا الفصول الأربعة" وفي

مجال النقد والفكر، صدر له: "دراسات ومقالات في الرواية" (2009)، و"دراسات في المجتمع العربي وثقافته" (2009)، وفي الترجمة: "منطقة القبائل والأعراف القبائلية" ل هانوتو ولوتورنو (2013).

إنطلاقاً من هاتين السيرتين المختصرتين للروائيين نرى أن الكاتبين تتقاطع مساراتهما الفكرية والأدبية بأكثر من طريقة: فكلاهما درس الفلسفة، وكلاهما كرّس هذا التوجه في الكتابة الإبداعية وساهم هذا التوجه الفكري في تأطير بعض أعمالهم الأدبية.

إضافة إلى ذلك فإن عوامل أخرى تجعلنا نقول بوجود علاقات تأثير وتأثر بين الكاتبين منها إطلاع الروائي "إبراهيم سعدي" على أدب "كامو"، لإتقانه اللغة الفرنسية من جهة، وإطلاعه على الأدب الفرنسي في لغته من جهة أخرى، دون نسيان العلاقات التاريخية بين الجزائر وفرنسا بحكم الاستعمار. فهدف الدراسات المقارنة هو "الوقوف على مناطق التشابه ومناطق الاختلاف بين الآداب ومعرفة العوامل المسؤولة عن ذلك".¹¹

بقي علينا الآن إظهار مواطن تلاقي الأديبين من خلال الاعتماد على المنجزات النصية، واخترنا في ذلك دراسة رواية "السقطة" مع روايتي "فيلا الفصول الأربعة" و"بوح الرجل القادم من الظلام" -كما أسلفنا القول.

4-ملخص الروائيتين.

رواية (السقطة) لألبير كامو هي رواية ذات طابع فلسفي، نشرت لأول مرة عام 1956، وتعد آخر عمل متكامل له. تدور أحداثها في أمستردام بهولندا. وتتكون من سلسلة من المونولوجات الدرامية على لسان "فاض تائب" يدعى جان بابتيست كلامانس-Jean Baptiste Clamence، حيث يكشف سيرة حياته إلى شخص غريب، على شكل اعترافات، يتحدث فيها عن نجاحه باعتباره محامي دفاع بباريس ثريا، يحظى باحترام كبير لدى زملائه. ولينتهي به الأمر في أمستردام التي يقول عنها إنها بائسة، والحياة فيها بائسة أيضاً لا ترقى إلى الحياة في باريس. يخبرنا السارد على لسان الشخصية بأنه كان يعيش في باريس حياة مثالية كمحامي دفاع ناجح للغاية ويحظى بكبير من الاحترام. والغالبية العظمى من عمله تتمحور حول مساعدة الآخرين ممن لا يستطيعون الدفاع عن أنفسهم مثل قضايا «الأرامل والأيتام». في وقت متأخر من إحدى الليالي وهو يعبر جسر بونت رويال (الملكي) عائداً إلى منزله اقترب كلامونس من امرأة ترتدي ملابس سوداء كانت منحنية على حافة الجسر، قررت الانتحار. بعد ابتعاده عنها ببضع خطوات سمع صوت ارتطام جسد بالماء. تبعه صوت طلب النجدة تكرر

ذلك عدة مرّات ثم توقف ، وبدا له ذلك الصوت بأنه لشخص يخرق ، علم بعدها بأن المنتحر في تلك الليلة هي المرأة التي اصطدم بها في الجسر ، ولم يستطع إنقاذها خوفاً من الغرق معها ، ومن المياه الباردة ، ما يعني أن يعرض حياته لخطر الموت. حاولت الشخصية الحكائية محو هذه الحادثة من ذاكرتها ، لكنها ما فتئت تعود إليه بعد مرور عدة سنوات ، وهو يسير مساء يوم خريفي عائداً إلى منزله ، توقف على جسر الفنون -الخالى تماماً من الناس- تذكّر كيف مرّ يومه ، كان سعيداً ، وكان نهاره طيباً يقول: "رجل أعمى ، العبارة المقتضبة التي كنت أترقبها ، والمصافحة الودية من زبوني ، وبعض الهبات التي منحتها ، وبعد الظهر ، بعض الحديث المرتجل بصحبة عدد من الاصدقاء عن قسوة طبقتنا الحاكمة ونفاق قادتنا... وأحسست بشعور متزايد من القوة ينبثق في داخلي - لست أعرف كيف أعبّر عن ذلك - الكمال ، الذي أبهج قلبي. واعتدلت ، وبينما كنت أحاول أن أشعل سيكارة ، سيكارة القناعة ، انبثقت في تلك اللحظة ضحكة خلفي..."¹².

حاول أن يجد مصدر الضحك لكنه لم يكن بجانبه أحد ، فاكتشف في النهاية أنها ضحكة تنبع من داخله ، قد تكون ضحكة الرضا النفسي ، لكنه اكتشف في النهاية- بعد أن عاش صراعاً داخلياً- بأنه شخصية منافقة ، لا يختلف عن غيره من البشر ، وما الخير والفضيلة التي كان يحاول أن يصف نفسه بها إلا نفاق وغرور ؛ لأنه اكتشف في تلك اللحظة بأنه لم يكن يفعل الخير من أجل الناس البسطاء ، وإنما ليحاول أن يقنع نفسه بأنه إنسان فاضل وكامل. يقول الروائي على لسان السارد: "فعل الخير للسمو إلى القمة العالية حيث الفضيلة هي الجزء الوحيد"¹³. كما يشير السارد في نهاية الرواية إلى ندم كلامونس عن عدم إنقاذه للمرأة المنتحرة من الجسر يقول: "آه أيتها الشابة ، ألقي بنفسك إلى الماء ثانية لكي تتوافر لي فرصة أخرى أنقد فيها نفسيّنا معا"¹⁴. وصف بول سارتر الفيلسوف الوجودي هذه الرواية قائلاً: قد تكون الأجل.

أما رواية فيلا الفصول الأربعة للروائي إبراهيم سعدي فبدايتها كانت بزيارة (الهادي) لأحمد ياطو ، التي أرادها أن تكون الأخيرة ، لكن بمجرد أن دخل الفيلا التي يسكن فيها (فيلا الفصول الأربعة) وجدته ميتاً ولا أحد يعلم كيف. وكان أحمد ياطو وزيراً سابقاً ، بمجرد حذف اسمه في الحكومة الجديدة بعد التعديلات الحكومية التي أجريت. أحضر الهادي طبيباً عاين الميت (أحمد ياطو) ، الذي كان يعيش وحيداً في تلك الفيلا الفخمة ، بعد أن تركته زوجته وأخذت معها أولادهما. وقد حاول الهادي الاتصال بأهل الميت وأقاربه ومعارفه لحضور

مراسيم الجنازة ، ولكن لم يحضر أحدٌ في تلك الليلة ، ولذا اضطر للمكوث وحده رفقة جثة صديقه إلى الصباح الذي شهد حضور أولاده وبعض معارفه.

استرجع الهادي في تلك الليلة ، معظم الذكريات التي جمعتها مع صديقه ياطو. وأمام صدمة موته أبرز لنا الكاتب على لسان شخصية الهادي نظرة الانسان للحياة وللوجود ، فنعكس لنا النظرة الفلسفية والعميقة والعنيفة لهذا الوجود. عبر طرح أسئلة محيرة ، وصارت هواجس ، يقول مثلاً ما الجدوى من هذه الحياة إذا كانت نهايتها الموت المحتم ، الذي لا يمكن للإنسان الفرار منه ؟ وما الفائدة من الزواج لإنجاب أطفال مصيرهم الموت ؟ مصيرهم مبرمج مسبقاً ؟ وقد وصل به الأمر إلى وصف العلاقة الجنسية بين الزوجين بجريمة الإنجاب ، ووصفها بالشنعاء ، فكان موقفه من المرأة النفور والابتعاد عن الحب بكل أشكاله ، رغم ما يجده في أعماقه من نزوع جارف إليه . وقد كانت له مناسبة للزواج من فتاة جميلة ورقيقة ، لكنها رفضته بمجرد أن اشترط عليها عدم الإنجاب ، أي ارتكاب تلك الجريمة ، كما يعدّها . كما عرضت عليه امرأة أخرى الزواج ، لكنها أعرضت عنه بمجرد أن اشترط عليها أيضاً عدم الإنجاب ، مما جعلها تتهمه بأنه لا يرى في المرأة إلا جسدها.

وتستمر الرواية في سرد الهادي لحياة أحمد ياطو ، وكيف كان يخدمه ، إلى درجة أنه لم يستطع أن يرفض له طلباً ، حتى الرواية التي كتبها (الهادي) تنازل عنها لصديقه ونشرت باسمه ، حتى اشتهر بها وارتقى مكانة ، بل بقي وفياً له حتى موته ، فقد سهر إلى جانب جثته طيلة الليل ولم يستطع الخلود للنوم ولو بضع دقائق حتى لا يشعر صديقه -رغم موته- بأنه تخلى عنه هو أيضاً. بل قرّر نشر روايته الثانية —أيضاً- باسم صديقه ياطو بعد موته وفاء له.

5-الفلسفة والمشارك الموضوعاتي والفكري.

من بين التعريفات التي أعطيت للأدب المقارن —إضافة إلى ما تم الإشارة إليه أعلاه- أنه "يدرس مواطن التلاقي بين الآداب في لغاتها المختلفة ، وصلاتها الكثيرة المعقدة ، في حاضرها وفي ماضيها ، وما لهذه الصلات التاريخية من تأثير وتأثر ، أي كانت مظاهر ذلك التأثير والتأثر: سواء تعلقت بالأصول الفنية العامة للأجناس والمذاهب الأدبية أو التيارات الفكرية ، أو اتصلت بطبيعة الموضوعات والمواقف والأشخاص التي تعالج أو تحاكي في الأدب ، أو كانت تمس مسائل الصياغة الفنية والأفكار الجزئية في العمل الأدبي"¹⁵ ، والقارئ

المتأمل في هاتين الروايتين يجد أنهما تشتركان في العديد من النقاط ، الجانب الموضوعاتي ، والتيار الفكري اللذان أطرا هذين العاملين .

يتماهي الجانب الموضوعاتي مع التيار الفكري الفلسفي الوجودي ، وينعكسان من خلال مجموعة من الأفكار المرتبطة بالإنسان وقضايا الوجودية التي طرحها الفيلسوف الوجودي جان بول سارتر¹⁶ ليظهر تأثير الفلسفة في الأدب "باعتبارها بعدا فكريا وثقافيا عميقا. وهذا البعد الفلسفي هو الذي يمنح العمل الأدبي الحقيقي ما يحتاجه من فكر وعمق وثقافة ، ويسمح له بالتالي أن يكون تجربة إنسانية ثرة".¹⁷

من بين النقاط التي تشرك فيها هاتين الروايتين الطابع البنائي للشخصية المحورية فهي شخصية عازبة في كليتيهما ، ووراء هذه العزوبية فكر فلسفي عميق ، تجلى أكثر في رواية "فيلا الفصول الأربعة".

يقول كلاموس بطل رواية السقطة: "لم يكن بوسعي أن أقتل زوجتي لأنني كنت أعزبا"¹⁸. وكذلك شخصية الهادي في رواية "فيلا الفصول الأربعة" فهي شخصية ترفض الزواج من أساسه ؛ لأن الزواج يرتبط بفكرة الإنجاب وهو أمر يرفضه.

إن فكرة "اللاإنجاب" موقف فلسفي أخلاقي ، ناتج عن أنساق ضاربة في القدم ، لقيت صدى عند الكثير من الفلاسفة منهم شوبنهاور¹⁹ و"إيميل سيوران". يدعو هذا الفكر إلى تجنب الإنجاب لمنع الضرر عن الأجيال القادمة ، فليس من المنطق ولا من الأخلاق في رأي هؤلاء- أن يأتي إنسان بآخر إلى الحياة ويفرض عليه أن يعيش المعاناة الوجودية ؛ لأن "جوهر الوجود هي المعاناة المستمرة. وما الحياة إلى لحظة سلبية تنتهي بالموت ، وليس من الأخلاقي أن نفرض هذا العبء على من هو غير موجود"¹⁹. خاصة أن المولود لا يمكن استشارته قبل ولادته ، ما يعني أنه مجبر على العيش وفقا للمحيط الذي سيجد نفسه فيه حتما.

يقول السارد: "شيء طالما أرقني. لقد بدا لي على الدوام بأن الحياة ليست غير قتل مؤجل. فخ كبير. لا فرار منه. ولهذا لم أركن في يوم من الأيام إلى فكرة الزواج. أن أعطي الحياة لكائن بشري من خلال قران مع امرأة لم يكن تعني بالنسبة لي غير اتفاق مشترك على قتل الكائن القادم. أعني تحضيره لموت لا مفر منه إن أجلا أو عاجلا... لم ألتق بامرأة تقبل أن تقتل بي وفق شروطي ، أعني أن نتزوج من دون ارتكاب الجريمة المحتملة. أقصد من دون إنجاب أطفال".²⁰

يضعنا هذا المقطع أمام ثنائية (البداية / النهاية) أو (الولادة / الموت)، بما أن المصير الثاني -وهو الموت- حتمي، فعلى الإنسان تجنب الأول، حتى لا يرتكب جريمة قتل إنسان بريء. يقول سيوران أننا "لا نركّضُ نحو الموت، نحن نفرّ من كارثة الولادة ونتخبّط مثل ناجين يحاولون نسيانها. ليس الخوف من الموت سوى إسقاط على المستقبل لخوف قادم من لحظتنا الأولى. يصعبُ علينا طبعًا أن نعتبر الولادة نكبة. ألم يُرْسَخَ فينا أنّها النعمة الأولى وأنّ الأسوأ كامنٌ في نهاية مسيرتنا لا في بدايتها؟ إلّا أن الشرّ، الشرّ الحقيقي، يكمن خلفنا لا أمامنا"²¹

لم يتوقف المشترك الفلسفي في هاتين الروایتين عند هذا الحد، بل نجد قضايا فلسفية أخرى ضمنتها الروایتين، فرواية السقطة تدرس موضوع الحرية والعدالة، الحرب والسلام، الخير والشر، والفضيلة والرذيلة، وتجلّى ذلك من خلال مجموعة من الأعمال التي كان يقوم بها البطل كلامونس لمساعدة الناس الفقراء أو البسطاء والتي كانت تشعره دائمًا بالسعادة والفضيلة -كما أشرنا إلى ذلك سابقًا- حيث يقول:

"كنت قبل بضع سنوات محامياً في باريس، بل كنت محامياً مشهوراً... ولدي اختصاص في القضايا النبيلة. الأرامل والأيتام -كما يقول المثل- ولست أعرف لماذا..."²² وهذا التساؤل قد يوحي بطبيعة الإنسان وميله الغريزي إلى فعل الخير، فحينه للإنسان البدائي يوحي بذلك حيث يقول السارد أيضاً: "فكل من يبحث في أمر الإنسان، سواء كان حرفته أو هوايته، يشعر بالحنين إلى البشر البدائيين، إلى القردة، فهي لا تملك أية دوافع غير مباشرة على الأقل".²³

ويقول أيضاً: كنت مثلاً أحب أن أساعد العميان على عبور الشارع. وكنت كلما رأيت عصا تهتز مترددة على جانبي الرصيف، أهرع إليها أسبق يداً أخرى غير يدي، تمتد بالعون، بثنائية واحدة، واختطف الأعمى"²⁴

"كنت أستمع بإسداء العون في الشارع، وإشعال السكائر للآخرين والمساهمة في دفع العربات اليدوية الثقيلة أو دفع السيارات العاطبة أو شراء صحيفة من فتاة جيش الخلاص، أو الزهور من البائعة العجوز رغم أنني أعلم أنها سرقتها من مقبرة مونبارناس"²⁵ أثبتت دراسات سابقة أن الأدب العربي الإسلامي أثر في الأدب الإيطالي، وتظهر ملامح هذا التأثير في ملحمة (دانتي أليغييري Alighieri Dante) الخالدة (الكوميديا الإلهية)، نظراً لوجود تشابه بين هذين الأدبيين في تصوير الحياة بعد الموت وصور الدار الآخرة،

وتشكيل عوالم تعكس أدب المعراج. وأكّد هذا الباحث الإسباني (أسين بالاثيوس)، فعّد هذا من بين أهم النتائج التي حقّقها البحث المقارن في القرن العشرين.²⁶ كما حاول (الحمصي) أن يثبت إطلاع دانتّي على (رسالة الغفران)، نتيجة ما لاحظته من تشابه في موضوع العملين.²⁷ إضافة إلى ذلك تناول محمد كامل الخطيب في كتابه (المغامرة المعقدة) تاريخ العلاقات الأدبية بين الشرق والغرب في المجتمعين العربي والغربي.²⁸

أسهم تأثر دانتّي بالتراث العربي الإسلامي منذ أوائل القرن الرابع الميلادي في نقل هذا التراث إلى أوروبا، ما يعني تأثر أدباء آخرين من بعده بهذا التراث، وهذا ما يظهر في رواية (كامو) –التي نحن بصدد دراستها- من خلال إشارة السارد إلى العالم العلوي والعالم السفلي كأماكن وقعت فيها أحداث الرواية، منها باريس وأمستردام، وقد قابل بينهما، ليعطي لنا صورتين عن عالمين مختلفين: الجنة والنار، العالم السفلي والعالم العلوي، عالم متخلف وعالم مثقف ومتحضر، كأني بالروائي استعار من دانتّي هذين العالمين.

يقول الروائي عن شخصية كلامونس بأنه رجل يفضل الأماكن السامقة، والأرصقة العالية، والجبال، والفضاءات المفتوحة. وتجلى ذلك في قول السارد: "فإن شرفة طبيعية على ارتفاع 1500 قدم فوق البحر، غارقة في نور الشمس، كان المكان الذي يمكنني أن أنفّس فيه بحرية، خاصة إذا كنتُ وحيداً فوق مستوى النمل البشري... ألم تكن تلك جنة عدن يا سيدي العزيز، ألا يقف شيء بيني وبين الحياة؟"

- ويقول أيضاً: "رغبتي في أن أجعلك تفهم هذه المدينة تماماً، وقلب الأشياء! لأننا في قلب الأشياء هنا. هل لاحظت أن قنوات أمستردام المركزية تشبه ساحات الجحيم؟ جحيم الطبقة المتوسطة طبعاً. التي تعيش فيها الأحلام السيئة" ففي هذين الوصفين يقدّم لنا السارد صورتين متناقضتين صورة باريس (العالم العلوي)، وصورة أمستردام (العالم السفلي).

كما تناولت رواية "فيلا الفصول الأربعة" فلسفة الوجود من خلال طرح مجموعة من الأسئلة الوجودية عن الموت كمصير محتوم، وحقيقة الإنسان والكون... الخ. وتجلى ذلك من قول السارد على لسان الشخصية: "حسبت فقط بأن الموت قد فعل فيه فعله، كاشفاً له عن زيف وهشاشة ما نحسبه مهما في هذه الحياة بينما هو في الحقيقة مجرد لا شيء أمام سيادة الموت قدرنا الجبار"

وقوله أيضا: "أحسست كما لو أن تلك اللعبة الخشبية ذات النقوش المحكمة الغلق ، تحتوي أسرار الخلق وربما من ضمنها سرّ وجودي". (يرتبط هذا المقطع بحدث دفن الصندوق الذي وجده الهادي في درج مكتب يطو ، والذي يحوي مذكراته).

6-سيرة البوح والاعتراف في الروايتين.

تشترك رواية (السقطة) مع رواية (فيلا الفصول الأربعة) في البناء الحكائي ، وعدم اعتمادهما كثيرا على تقنية الحوار ، وهذا ما صبغهما بطابع المونولوج ، فرواية السقطة عبارة عن مجموعة من المونولوجات الدرامية على لسان "قاضي تائب" يدعى (كلامانس) ، ويكشف سيرة حياته إلى شخص غريب. والأمر نفسه نجده في رواية (فيلا الفصول الأربعة) ، حيث اعتمد الروائي على تقنية الاستدكار والحوار الداخلي بدءاً من اللحظة التي وقف فيها (الهادي) أمام جثة صديقه (أحمد ياطو).

إضافة إلى ذلك فإننا إما حاولنا مقارنة موضوع رواية (السقطة) من ناحية عذاب الضمير وإدانة الذات والبوح والتوبة ، والحرب (الحرب العالمية الثانية) ، فإنه في ذلك يشبه رواية أخرى لـ"إبراهيم سعدي" هي رواية (بوح الرجل القادم من الظلام). تصور لنا هذه الرواية الوضع السياسي اللامستقر للجزائر وأثر ذلك على الحياة الاجتماعية ، في تسعينات القرن الماضي (العشرية السوداء) ، وصنفت (أعني الرواية) ضمن الأدب الاستعجالي أو أدب المحنة.

بطل هذه الرواية (منصور) ، وحيد والديه ، ظهرت فيه علامات البلوغ في سن مبكرة (12 سنة) مما دفعه إلى ارتكاب خطايا كثيرة منذ ذلك العمر إلى أن أصبح شابا ، وعندما كبر شعر بالذنب ، وبدأ يكتب اعترافاته كمتصوف تائب ، يبحث عن الخلاص وعن سبيل للحصول على صك الغفران.²⁹

7-النتائج

حاولنا من خلال هذا البحث إجراء مقارنة بين أدبين ينتميان إلى ضفتي البحر الأبيض المتوسط ، أحدهما أدب فرنسي ومثلنا له برواية (السقطة) لألبير كامو ، والآخر أدب جزائري مثلنا له بروايتين لإبراهيم سعدي (فيلا الفصول الأربعة) و(بوح الرجل القادم من الظلام) ، واستناداً إلى معطيات نصية وأخرى خارج نصية نستنتج:

-وجود تشابه بين الأدبين وهذا ما جعلنا نفترض وجود صلات أدبية وفكرية بينهما ، وعلاقات تأثير وتأثر ، نتيجة وجود علاقات تاريخية بين الأدب الفرنسي والأدب الجزائري بسبب الاستعمار.

-انعكاس التكوين الفلسفي للروائيين في الأعمال الأدبية ، وتضمين أفكار التيار الواقعي فيها ، فهذا الاشتراك في التكوين المعرفي للروائيين ساهم في تشابههما.

-اعتماد الروائيين على تقنية "الاستذكار" ، في بناء أحداث الأعمال الروائية.

-اعتماد السرد الروائي على مجموعة من (المونولوجات) الدرامية على لسان الشخصيات الروائية ، والتي جاءت على شكل اعترافات.

إضافة إلى ذلك اختلفت الأعمال الروائية في بعض العناصر ، وهذا ما يعطي طابع التميز الخاص بكل أدب. وهذا يغني العملية الإبداعية والذوق الأدبي.

5- مصادر البحث ومراجعته:

- 1-إبراهيم سعدي ، *بوح الرجل القادم من الظلام* ، منشورات الاختلاف ، الجزائر ، 2002.
- 2-إبراهيم سعدي ، *فيلا الفصول الأربعة* ، منشورات الاختلاف ، ط 1 ، الجزائر ، 2019.
- 3-إبراهيم عوض ، *في الأدب المقارن ، مباحث واجتهادات* ، المنار للطباعة والكمبيوتر ، 2006.
- 4-أحمد طه مكي ، *الأدب المقارن ، أصوله وتطوره ومناهجه* ، دار المعارف القاهرة ، 1987.
- 5-ألبيير كامو ، *السقطه* ، ترجمة: أنيس زكي حسن ، دار مكتبة الحياة ، بيروت ، دت.
- 6-الطاهر أحمد مكي ، *الأدب المقارن ، أصوله وتطوره ومناهجه* ، دار المعارف ، ط 1 ، القاهرة ، 1987.
- 7-ألكسندر ديما ، *مبادئ علم الأدب المقارن* ، ترجمة: محمد يونس ، دار الشؤون الثقافية ، بغداد ، 1987.
- 8-أوستين وارين ، و ويليك رينيه ، *نظرية الأدب* ، ترجمة: محي الدين صبحي ، المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم ، 1972.
- 9-إيميل سيوران ، *مثالب الولادة* ، ترجمة: آدم فتحي ، منشورات الجمل ، بيروت ، 2015.
- 10-جان بول سارتر ، *الوجودية ، منزع إنساني* ، ترجمة: محمد نجيب عبد المولى ، المديني زهير ، محمد علي للنشر ، ط 1 ، تونس ، 2012.
- 11-حسن ناظم ، *مفاهيم الشعرية ، دراسة مقارنة في الأصول والمنهج والمفاهيم* ، المركز الثقافي العربي ، ط 1 ، بيروت ، 1994.
- 12-رينيك ويليك ، *مفاهيم نقدية ، عالم المعرفة* ، الكويت ، 1987.
- 13-صلاح فضل ، *تأثير الثقافة الإسلامية في الكوميديا الإلهية لدانتي* ، دار الآفاق الجديدة ، ط 2 ، بيروت ، 1979.
- 14-طلعت صبح ، *الأدب المقارن* ، ط 1 ، 2005.
- 15-ماريوس فرانسوا غويار ، *الأدب المقارن* ، ترجمة: هنري زغيب ، منشورات عويدات ، ط 2 ، بيروت-باريس ، 1988.
- 16-محمد شفيق شيا ، *في الأدب الفلسفي* ، مجد للدراسات والنشر والتوزيع ، ط 1 ، لبنان ، 2009.

- 17- محمد غنيمي هلال ، *الأدب المقارن ، نهضة مصر ، مصر ، 2008*.
 18- محمد كامل الخطيب ، *المغامرة المعقدة ، وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، دمشق ، 1976*.
 19- الحمصي قسطنطي ، *منهل الوارد في علم الانتقاد ، مطبعة الصاد ، 1955*.

— المجلات:

بن الدين بخولة ، *الأدب المقارن التطبيقي في مؤلفات النقد الأدبي الحديث. الخطاب ، مخبر تحليل الخطاب ، تيزي وزو ، جانفي 2022 ، مجلد 17 ، عدد 1 ، صفحة 414*.

رابط المجلة: <https://www.asjp.cerist.dz/en/article/175421>

عبد عبود ، *الأدب المقارن والاتجاهات النقدية الحديثة ، مجلة عالم الفكر ، مجلد 28 ، العدد 1 ، 1999*.

المواقع الإلكترونية:

التهدي بوشيعي ، *قراءة تحليلية للفلسفة اللانجائية ، فبراير 2020 ، تاريخ الاطلاع: 1 مارس 2024*.

www.elmahatta.com

— *أزمة الأدب المقارن ، تاريخ الاطلاع: 30 مارس 2024 ، <https://fr.scribd.com/doc/48989014>*

6- الهوامش والإحالات:

- ¹ - الطاهر أحمد مكي ، *الأدب المقارن ، أصوله وتطوره ومناهجه ، دار المعارف ، ط 1 ، القاهرة ، 1987 ، ص 194*.
- ² - طلعت صبح ، *الأدب المقارن ، ط 1 ، 2005 ، ص 1*.
- ³ - ماريوس فرانسوا غويار ، *الأدب المقارن ، ترجمة: هنري زغيب ، منشورات عويدات ، ط 2 ، بيروت-باريس ، 1988 ، ص 15*.
- ⁴ - حسن ناظم ، *مفاهيم الشعرية ، دراسة مقارنة في الأصول والمنهج والمفاهيم ، المركز الثقافي العربي ، ط 1 ، بيروت ، 1994 ، ص ص 35-36*.
- ⁵ - عبد عبود ، *الأدب المقارن والاتجاهات النقدية الحديثة ، مجلة عالم الفكر ، مجلد 28 ، العدد 1 ، 1999 ، ص ص 288-291*.
- ⁶ - رينيك ويليكي ، *مفاهيم نقدية ، عالم المعرفة ، الكويت ، 1987 ، ص 374*.
- ⁷ - أوستين وارين ، و ويليكي رينيه ، *نظرية الأدب ، ترجمة: محي الدين صبحي ، المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم ، 1972 ، ص 66*.
- ⁸ - الطاهر أحمد مكي ، *الأدب المقارن ، أصوله وتطوره ومناهجه ، ص 196*.
- ⁹ - بن الدين بخولة ، *الأدب المقارن التطبيقي في مؤلفات النقد الأدبي الحديث. الخطاب ، مخبر تحليل الخطاب ، تيزي وزو ، جانفي 2022 ، مجلد 17 ، عدد 1 ، صفحة 414*.
- ¹⁰ - ألكسندر ديما ، *مبادئ علم الأدب المقارن ، ترجمة: محمد يونس ، دار الشؤون الثقافية ، بغداد ، 1987 ، ص 11*.

- ¹¹ - إبراهيم عوض ، في الأدب المقارن ، مباحث واجتهادات ، المنار للطباعة والكمبيوتر ، 2006 ، ص 7.
- ¹² - كامو ، السقطة ، ص 33.
- ¹³ - كامو ، السقطة ، ص 18.
- ¹⁴ - كامو ، السقطة ، ص 108.
- ¹⁵ - حمد غنيمي هلال ، الأدب المقارن ، نهضة مصر ، مصر ، 2008 ، ص 13.
- ¹⁶ - جان بول سارتر ، الوجودية ، منزع إنساني ، ترجمة: محمد نجيب عبد المولى ، المدينني زهير ، محمد علي للنشر ، ط 1 ، تونس ، 2012.
- ¹⁷ - محمد شفيق شيا ، في الأدب الفلسفي ، مجد للدراسات والنشر والتوزيع ، ط 1 ، لبنان ، 2009 ، ص 6.
- ¹⁸ - كامو ، السقطة ، ص 16.
- ¹⁹ - النهدي بوشخي ، قراءة تحليلية للفلسفة الالانجائية ، فبراير 2020 ، تاريخ الاطلاع: 1 مارس 2024 ، www.elmahatta.com
- ، 2020
- ²⁰ - إبراهيم سعدي ، فيلا الفصول الأربعة ، منشورات الاختلاف ، ط 1 ، الجزائر ، 2019 ، ص 18.
- ²¹ - إيميل سيوران ، مثالب الولادة ، ترجمة: آدم فتحي ، منشورات الجبل ، بيروت ، 2015 ، ص 8.
- ²² - كامو ، السقطة ، ص 14.
- ²³ - كامو ، السقطة ، ص 6.
- ²⁴ - كامو ، السقطة ، ص 17.
- ²⁵ - كامو ، السقطة ، ص 17.
- ²⁶ - صلاح فضل ، تأثير الثقافة الإسلامية في الكوميديا الإلهية لدانتى ، دار الآفاق الجديدة ، ط 2 ، بيروت ، 1979 ، ص 3.
- ²⁷ - الحمصي قسطنطي ، منهل الوارد في علم الانتقاد ، مطبعة الضاد ، 1955 ، ص 192.
- ²⁸ - حمد كامل الخطيب ، المغامرة المعقدة ، وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، دمشق ، 1976.
- ²⁹ - إبراهيم سعدي ، بوح الرجل القادم من الظلام ، منشورات الاختلاف ، الجزائر ، 2002.